المحاضرة السابعة : الرمز الصوفي

استعمل المتصوفة اللغة استعمالا خاصا ، واتخذوا من الرمز مطية للتعبير عن أحوالهم وما يعايشونه من مواجد . فعالم المتصوفة عالم متموج غني بالإيحاءات والرموز والإشارات فهم يعبرون عن حالة خاصة ، ويقفون أمام عالم لا تحيط به العقول ، ولا تدركه الأبصار ، عالم من المثالية البرزخية ومن المشاهدات الروحية الربانية ، فسبيلهم الإلغاز والرمز لا الإيضاح والتقرير.

ونظرا للميزات الفنية البليغة التي يتلبسها الرمز ؛ بوصفه وسيلة إيحائية تتصف بالإيجاز والبلاغة والمجاز ، فقد جعلها الشعراء المتصوفة أداتهم الأولى في التعبير عن أحوالهم النفسية ، وتجاربهم الروحية الذوقية ، التي لا يستطيعون توصيفها بصورة مباشرة

1/ تعريف الرمز : للرمز تعريفات كثيرة منها :‹‹ كيان حسي يثير في الذهن شيئا آخر غير محسوس ، أي أنه يبدأ من الواقع ، ولكنه بالخطوة التالية يجب أن يتجاوزه إلى ما وراءه من معان مجردة ›› [1]

وهناك من الدارسين من عدّ الصورة الرمزية وسيلة فنية تقوم مقام التشبيه والاستعارة والكناية في التصوير ، ومحاورة النصوص واستنطاق اللغة ‹‹ إننا نرى أن الصورة الرمزية وسيلة فنية يمكن أن تقوم بعبئ التعبير عن تجارب الشعراء وتوصيلها إلى المتلقين ، مثلها في ذلك مثل الصورة التشبيهية أو الاستعارية أو الكنائية أو المجازية المرسلة مع اختلاف في طبيعة كل نوع من هذه الأنواع ›› [2]

أما عن سبب لجوء الصوفية إلى الرمز مردّ ذلك بالدرجة الأولى إلى الخوف من بطش السلاطين ، و الفقهاء وجمهور العامة ؛ فكثيرا ما حملت أقوالهم وكتاباتهم على محمل

---

[1]) – محمد فتوح أحمد ، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، ط2 ، دار المعارف ، مصر ،1978 ، ص304

[2]) – فايز الداية ، جماليات الأسلوب ، الصورة الفنية في الأدب العربي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، 1424هـ ، 2003 ، ص 175

الكفر والخروج على الملة ، وخير دليل على ذلك الحلاج الذي اتهم بالكفر والمروق عن الدين ، فألقي به في السجن ثم عذّب وصلب في نهاية المطاق وأحرقت كتبه وأشعاره بإيعاز من الحكام . والسبب الآخر هو قصور اللغة في التعبير عن أحاسيسهم وتجاربهم الوجدانية ‹‹ وفي هذا تخبرنا كتب تراجم الصوفية أن هؤلاء دفعوا ثمنا باهظا بسبب افتضاح عقائدهم خطأ وعن غير قصد ، أو بسبب إعلانهم عنها وقد اضطهدوا على الدوام ، وكانت أصغر عقوبة تنزل بهم هي الشتم والاستهزاء ››[1]

2/ أنواع الرمز الصوفي :

1 ــ رمز المرأة : حظيت المرأة على مرّ العصور باهتمام الشعراء والأدباء ، من خلال المقدمات الغزلية ، وقصائد النسيب .

وقد نهل الصوفيون من القصيدة الغزلية – وخاصة قصيدة الغزل العفيف – للتعبير عن حالة العشق والوله بالذات الإلهية ‹‹ والحق أن بواكير رمز " المرأة " في شعر الحب الصوفي ، إنما تكمن في طائفة من الأشعار والروايات التي تناقلها الرواة عن شخصية قيس بن الملوّح أو مجنون ليلى . باعتبار أن شعره يمثل تيار الغزل العذري العفيف أصدق ما يكون التمثيل ، كما أن شخصيته التي ظهرت في الروايات المأثورة متسمة بطابع جنوني ، تعد إرهاصا مبكرا لما شاع عند الصوفية من أحوال الوجد والفناء والذهول والاستغراق والجنون . ›› [2]

فأشعار العذريين وتصوير أشواقهم لمحبوباتهم ، ووصف آلام الفراق والبعد ، وجد فيها المتصوفة المادة والزاد للبوح بمشاعرهم ومحبتهم للذات الإلهية ، وهو حب فيه مزج بين الحب الإنساني والحب الإلهي ، ولا ينسى الشاعر الصوفي الوقوف على الأطلال واستذكار

[1]) – هيفرو محمد علي ديركي ، جمالية الرمز الصوفي،ط1 ، دار التكوين ، دمشق ، 2009 ، ص61

[2]) – عاطف جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، دار الأندلس ، دار الكندي ، بيروت ، ص132

الأيام الخوالي ، ووصف الرحلة والوقوف على الأمكنة وما بها من حيوان أو نبات ، ووصف الناقة في قوتها قبيل الرحلة ، وإجهادها بعيد انتهاء الرحلة ‹‹ وامتزاج المرأة بالطبيعة الحية في تنوع مظاهرها وتقلب أحوالها ، وإلحاحه الشديد على ذكر الأودية والمرابع والأماكن التي كان ورودها في الشعر القديم علامة على اغتراب مكاني أملته ظروف البيئة والمناخ ، وليس هذا الاغتراب المكاني..سوى إسقاط لاغتراب آخر ذي طابع وجداني ، ومن هذا الشعور الباطن بالاغتراب انبثق في الشعر التقليدي وصف الرحلة والقافلة والناقة التي ألمّ بها الأين.

ولم يجد الشعر الصوفي بأسا من الإهابة بالرحلة والاغتراب المكاني والروحي ومزج الطبيعة إن في جمالها وإن في جلالها ، بوصف حرق المحبة وتلون أحوالها من خلال بثينة وعزة وليلى العامرية ، التي لم تبلغ هذه الغاية من الرمزية ، إلا لما تضمه من قوى روحية ساغ معها أن تنزل هذه المنزلة العالية في تعبير المتصوفة. ›› [1]

ومن أمثلة ذلك هذا الشعر ما قاله بن الفارض وهو يتغنى ويناجي الذات الإلهية في صور رمزية إيحائية :

هل نارُ ليلى بدتْ ليلاً بذي سَلَمِ * أمْ بارقٌ لاحَ بالزَّوراءِ فالعَلمِ

أرواحَ نعمانَ هلاَّ نسمةٌ سَحَرا * وماءَ وجرةَ هلاَّ نهلَةٌ بفمِ

يا سائقَ الظعنِ يطوي البيدَ مُعتسفًا * طيِّ السّجلِ بذات الشيحِ من إضَمِ

عُج بالحِمى يا رعاكَ اللهُ معتمدًا * خميلةَ الضالِ ذاتِ الرَّندِ والخُزَمِ

ناشدتكَ الله إن جزتَ العقيقَ ضُحًى * فاقْرَ السّلامَ عليهِم غيرَ مُحتَشِمِ

وقلْ تركتُ صريعًا في ديارِكُمُ * حيًّا كميْتٍ يُعيرُ السُّقمَ للسّقَمِ

[1]) – عاطف جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ص178 ، 179

فمن فؤادي لهيبٌ ناب عن قبسٍ * ومن جُفونيَ دمعٌ فاض كالدّيَمِ

يا لائمًا لامني في حبّهِمْ سَفهًا * كُفَّ الملامَ فلوْ أحببتَ لم تلُمِ

وحُرمةِ الوصلِ والودِّ العتيقِ وبالـ * عهدِ الوثيقِ وما قد كان في القِدمِ

ما حُلتُ عنهُمْ بسُلوانٍ ولا بدَلٍ * ليسَ التّبدّلُ و السِّلوان من شيّمي [1]

2/ رمز الخمرة :

نهل شعراء التصوف من القصائد الخمرية ؛ وجعلوا من الخمرة ودلالاتها ومدلولاتها رمزا للحالات التي تعتري المتصوف ، كما ‹‹ يلوحون به على طريقتهم إلى مجموعة ثابتة من المعاني الذوقية . وقد أعطى الصوفية هذا المعجم الخمري دلالات جديدة خرجت بالخمر إلى دائرة الرمز الصوفي ، والصوفية يستخدمون نفس الألفاظ التي نجدها في شعر الخمر الحسية ، كالندمان والحواني والدنان ، إلاّ أنّهم يشيرون بهذه الألفاظ إلى معاني الحب والفناء والاتحاد ›› [2]

والقصيدة الخمرية قديمة قدم القصيدة العربية ، ففي القصيدة الجاهلية نجدها في شعر الأعشى وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم وعدي بن زيد العبادي ، ثم تطور هذا الفن في الحقبة الإسلامية ؛ خاصة في العصر العباسي نتيجة الاحتكاك بالثقافات الأخرى والتطور الحضاري والمادي للمجتمع ، والذي حفز هذا اللون الشعري على التطور تهالك القوم من حكام ووزراء على معاقرة الخمرة ، وقد برع من الشعراء في الخمريات أبو نواس .

هذا الأخير طارت شهرته في الآفاق وراجت أشعاره في وصف الخمر، وتصوير روادها ومجالسها ، وألوانها وأشكالها ، وأباريقها ودنانها وخوابيها وأكوابها ، وسقاتها وشرّابها ،

[1]) – ديوان ابن الفارض ، ص 123 ، 124

[2]) – عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، ص 131

وأحوالهم في سكرهم وصحوهم .. وقد احتفى الصوفية بهذا المعجم الخمري ووجدوا فيه مادة ثرّة بالدلالات والتعبيرات .

يقول أبو نواس في معرض التغنّي بالخمرة :

اثنِ على الخمرِ بآلائِها * وسمِّها أحسنَ أسمائها

لا تجعَلِ الماءِ لها قاهرًا * ولا تُسلِّطها على مائِها

كَرَخيَّةٌ قد عُتِّقتْ حِقْبةً * حتّى مضى أكثرُ أجزائِها

دارتْ فأَحيتْ غيرَ مذمومةٍ * نفوسَ حسراها وأنضائِها [1]

وقد جرى ذكر الخمر في قصائد الصوفية ، وهم بذلك يرمزون للحب الإلهي ، وأحوال المحبين ومواجدهم ، يقول أبو مدين التلمساني (514هـ/594هـ) في هذا المعنى :

أدرها لنا صِرفًا ودعْ مزجها عنّا * فنحن أناسٌ لا نرى المزجَ مُذْ كنّا

هي الخمرُ لم تعرفْ بكرمٍ يخصُّها * ولم يجلها راحٌ ولم تعرف الدّنآ

حضرنا فغبنا عند دوْر كؤوسِها * وعُدنا كأنَّا لا حضرنا ولا غِبنا

وأبدتْ لنا في كلِّ شيءٍ إشارةً * وما احتجبتْ إلاَّ بأنفُسِنا عنّا

ولم تُطقْ الأفهامُ تعبيرَ كنهِها * ولكنّها لاذتْ بألطافها الحُسنى

نصحتُك لا تقصُد سوى بابِ حانها * فمن وجدَ الأعلى فلا يطلبِ الأدنى

تجلّتْ دنوًّا واختفتْ بمظاهرٍ * وجلّتْ فما أغنى ودقّتْ فما أسنى

وما الكونُ إلاّ مظهرٌ لجمالِها * أرَتنا بهِ في كلّ شيءٍ بدا حُسنا [2]

---

[1]) – أبو نواس ، الديوان ، تحق : أحمد عبد المجيد الغزالي ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1423هـ/2003 ، ص30

[2]) – عاطف جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ص359